٤ — علم الانسان

الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧— ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بردجمن ومذهبه في التصور الفعال — نقد المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة الفروض

إنّ جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهلٌ ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأً تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدّستها الانسانية عن نفسها خلال تتالي القرون ، فتنافرت ولم تتسق . أضف الى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه تفاً من طريق تلك العلوم التي حاولت ان تدرس تركيبه الجثماني ووعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصلحة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أنا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مقنعة بالقوة تضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادىء والرغبات والاحلام ؛ تلك التي تمثل لا نظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . أضف الى مذاهب العلماء وتأملات الفلاسفة ، تلك النتائج المثبتة التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الغوابر ، هذا الى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل « الفن العلمي » السبب المباشر في ان ينعم بها الانسان ويستكنه مغلقها . ماهة ذا يحفزنا حتماً الى الشعور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذر هو بطبعه مجرد تآليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل (كائناً) ينطبق عليه ذلك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فنتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها (بردجمن) (التصورات الفعّالة) فكل المعرفة الايجابية (اليقينية) تتطلب منا استخدام

فرضاً ، وبالحري تتطلب بضع عمليات او أفعال طبيعية أو عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فانما نعني بذلك انهُ يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول انما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بردجمن ان التصورات التي تتصل باشياء خارجة عن حيز الاختبار ، تصورات مسلوبة المعنى . ومن هنا يقال ان سؤالاً ما انما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع ان يستكشف الانسان « العمليات » التي تؤهل بنا الى الاجابة عنهُ

ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمه واستيعابه . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنهُ « كائن يتألف من مادة ووعي » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منطقة الاختبار حتى الآن . وانما يكون التعريف الذي نضعهُ للانسان « تعريفاً فعّالاً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيه آثار الافعال الطبيعية الكيمائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقية الدائمة القاهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة المخيَّة ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية المتشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها (رامون كاجال) . هذا « تصوُّر فعال » . ومعنى انهُ فعال انهُ تصوُّر يظل ثابتاً لا يتغيَّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة المخية هي مقر الظواهر العقلية ، فلا شكَّ يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدرة لاننا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا المخية . بهذا نجد ان (التصورات الفعالة) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمنين . واذن ينبغي لنا أن ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناهُ عن أنفسنا لنختار منهُ القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليه وحده ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وان هنالك تصورات غير هذه وتلك ، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء أو الطبيعة أو الميكانيكا . وانا لندرك فوق هذا جميعه ان هنالك طوائف من التصورات والمدركات تكوّن ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها نقع على الانظمة الحية . فاول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهربات والجزيئات والذرات ، وهي أشياء نجدها في أنسجة الانسان العضوية كما نجدها في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب . ثم يأتي بعد ذلك تصور (المكان — الزمان) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة ، ويعقب على ذلك بتصور القدرة

والتفريغ الكهربي والايونات (الشوارد أو الدوالف) والتجمع والتبدد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكن بذلك التجمع ان تبني خلايا نسيجية ، وتألفت الخلايا فكونت أعضاء وعضليات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كتصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورثات genes والوراثة والتلاؤم adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة له فلا تطغى طائفة منها على مجال طائفة أخرى ، والا ضللنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية

لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية القديمة متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أبقى بصحة مذهب من المذاهب أيًّا كان ، فان يقينه هذا لا يمكنه من ادراك الظاهرات الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشتها المذاهب والمعتقدات والاوهام . وتلك أشياء يجب ان تدمر وتبدد . ولقد قال (كلود برنار) انه من الضروري ان يتخلص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من العبودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالاحيائيون — Biologists ومن ورائهم القائمون على شئون التربية والاقتصاديون والاجتماعيون ، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة ، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات ، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة تتبلور ثم تصير عقائد ، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية

نواجه في التاريخ أمثالاً عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا ، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقٍ الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استثيرت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضي ما هو غير آلة تتماسك أجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن ، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيميائية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدأ روحاني مستقل عن البدن ، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة ، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو موكل بتدبير شئون الكائن المتعضي . ومن الجلي أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انه في الواقع تأليفاً عقلياً . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبرها مهندس يسمونه (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته

وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليون ، فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط

الوظيفيّ والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا . فهم بذلك يشيدون آلة . ولكنهم نسوا ، كما نسي الروحانيون من قبلهم ، انهم هم بذواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وحبك اطرافها . فهم ، على ما يقول (وودجار) ، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده . ولا شك في ان هذا التصور بدوره ليس تصوراً فعّالاً

بذلك يظهر لنا ان القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي ان ينبذا وينبذ ، شأن كل المذاهب الاخرى ، ولنفس الاسباب التي تدعونا الى القضاء على المذاهب عامة . على انهُ ينبغي لنا الى جانب هذا ان نتحرر من الاوهام ومن الاخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة ، ومن المسائل التي تناول حلها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير ، ومن المستكشفات الزائفة التي روّجها أدعياء او علماء اكتسبوا شهرتهم بدعاوة الجرائد والصحف الاخرى . ولا ينبغي لنا ان نتحرر من هذا وحده ، بل من اشياء أخرى لا تقل عن تلك أثراً ، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لاشياء فقدة المعنى مسلوبة القصد والمغزى

إذا طهّرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً ، اصبحت نتائج البحث الجدّي في العلوم ذوات العلاقة بالانسان ، والثروة العظيمة التي ترتبت على التجاريب والاختبارات العلمية ، الاساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا . وإذا نظرنا في تاريخ الانسانية لاستطعنا ان ندرك تفاصيل الجهد الجوهري الذي بذلته خلال العصور بلمحة واحدة

غير انهُ يجب علينا ان نعي انه الى جانب المشاهدات اليقينية الايجابية والى جانب الحقائق الثابتة ، توجد اشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل . والواجب ان أمثال هذه الاشياء لا ينبغي ان تنبذ ، بالرغم من ان « التصورات الفعّالة » وحدها هي الاسس التي يقوم من فوقها بناء العلم . ذلك بأن قوة التخيّل ، وهي قوة ابتكارية خلاقة ، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والاحلام التي سوف تتمخض عن حقائقها عصور المستقبل . علينا أن نستر تسائل انفسنا واضع امامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة . وبفرض انا حاولنا أن نصد عقولنا عن التطلع الى معرفة المستحيلات والمجهولات ، فلا شك في اننا نخفق في ذلك . فان حب الاستطلاع صفة رسيسة في طبائعنا ، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة . أن العقل البشري يمضي باحثاً في كل الاشياء الخارجية ويمضي مخترقاً اعمق اغوار نفوسنا ، وأعمى تفاصيل كياننا على البحث ، بهمة لا يصيبها الكلال ولا ينفذ اليها الملل . أن حب الاستطلاع يحفزنا الى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه . انه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً الى رحاب مجهولة ، الى جبال شاهقة صعبة المرتقى وعرة المنحدر . ولكنها جبال على شاهقها ووعورة منحدراتها ، تذوب وتتبدد امام هذه القوة ، تبدد الدخان اذا ما ذرتهُ الرياح